

المثل السائر

فإن قيل إن اللغز يعرف من طريق المفهوم وهذان البيتان يعلم معناهما بالمفهوم . قلت في الجواب إن الذي يعلم بالمفهوم إنما هو التعريض كقول القائل إني لفقير وإني لمحتاج فإن هذا القول لا يدل على المسألة والطلب لا حقيقة ولا مجاز وإنما فهم منه أن صاحبه متعرض للطلب وهذان البيتان ليسا كذلك فإنهما لا يشتملان على ما يفهم منه شيء إلا بالحدس والحزر لا غير . وكذلك كل لغز من الألغاز .

وإذا ثبت هذا فاعلم أن هذا الباب الذي هو اللغز والأحجية والمعنى يتنوع أنواعا فمنه المصحف ومنه المعكوس ومنه ما ينقل إلى لغة من اللغات غير العربية كقول القائل اسمي إذا صحفته بالفارسية آخر وهذا اسمه اسم تركي وهو دنكر - بالبدال المهملة والنون وآخر بالفارسية ديكر - المهملة والياء المعجمة بثنتين من تحت - وإذا صفت هذه الكلمة صارت دنكر بالنون فانقلبت الياء نونا بالتصنيف وهذا غير مفهوم إلا لبعض الناس دون بعض . وإنما وضع واستعمل لأنه مما يشد القرينة ويحد الخاطر لأنه يشتمل على معان دقيقة يحتاج في استخراجها إلى توقد الذهن والسلوك في معاريج خفية من الفكر .

وقد استعمله العرب في أشعارهم قليلا ثم جاء المحدثون فأكثرُوا منه وربما أتى منه بما يكون حسنا وعليه مسحة من البلاغة وذلك عندي بين بين فلا أعده من الأحاجي ولا أعده من فصيح الكلام .

فما جاء منه قول بعضهم .

(قَدَّ سُقَيْيَتٌ آبَالُهُمْ بِالنَّارِ ... وَالنَّارُ قَدَّ تَشْفِي مِّنَ الْأُورِ) .
ومعنى ذلك أن هؤلاء القوم الذين هم أصحاب الإبل ذوو وجهة وتقدم ولهم وسم معلوم فلما وردت إليهم الماء عرفت بذلك الوسماً فرج لها الناس حتى شربوا وقد اتفق له أنه أتى في هذا البيت بالشيء وضده وجعل أحدهما سببا للآخر